



المثل وحكايته.. أبجدية لقراءة العالم

«على رأي المثل ...» عبارة يومية متداولة؛ عبارة تختزل إيماننا جمعياً بالتشابه والمماثلة؛ بأن ما حدث اليوم هو صورة تكرارية لما وقع البارحة، وهي في الآن ذاته تحمل إيماناً بأن هذا التشابه، وتلك المماثلة، أمر يمكن الاستفادة منه واستثماره في التعامل مع معطيات الواقع ومواقف الحياة اليومية. من منطلق هذا الوعي بقيمة استحضار تجارب الماضي كانت كتب الأمثال العربية، التي مثلت حلقة الوصل بيننا وبين تراثنا العقلي والمعرفي والشعوري؛ فاعتقلت لنا هذا التراث الشفهي الجمعي الأصل في كلمات وسطور تستخلص لنا فائدة القول ومنتهاد؛ وتضع بين أيدينا في لفظ بليغ موجز، وفي سرد تفسيري تفصيلي شارح، خلاصة تجارب ماضينا الإنساني والعربي.



د. أحمد عبد العظيم محمد - مصر

(أشأم من سراب. أعز من كليب وائل. كالمستغيث من الرمضاء بالنار...).

ما هي الحكاية؟ وأين القصة؟ وما المغزى؟
أما الحكاية: فهي حكاية أربعين عاما كاملة من الحرب والقتال.

نعم، أربعون عاما كاملة.. هي مدة تلك الحرب التي دارت رحاها في الجاهلية بين قبيلتين كبيرتين (بكر- تغلب): إنها «حرب البسوس»..

هل تعرفون لماذا سميت بالبسوس؟

هل تعرفون أسباب هذه الحرب التي دارت رحاها في الجاهلية؟ وهل تعرفون أبرز رجالها وأبطالها وما آلت إليه؟

كل هذه الأسئلة وغيرها الكثير أجابتنا عنه كتب الأمثال العربية: وكل هذه الأحداث وجدنا صداها ومحتواها في مرجعنا الأدبي «مجمع الأمثال للميداني»^(١): ابتداءً بالقول الموجز البليغ الحكيم، وتمة بالسرد الفني

المفصل لأحداثها وملابساتها الدرامية ووقائعها:

«أشأم من البسوس: هي بسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة بن ذهل الشيباني قاتل كليب، وكان من حديثه أنه كان للبسوس جارٌّ من جرم يقال له سعد بن شمس، وكانت له ناقة يقال لها: سراب، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية.. فلم يكن يرعاه أحدٌ إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما... فخرجت سراب ناقة الجرمي في إبل جساس ترعى في حمى كليب، ونظر إليها كليب فرماها... فاختل ضرعها، فولت حتى بركت بفناء صاحبها،

ولعل التداول الجمعي للمثل، ثم التدوين الفردي والكتابي لحكايته يكشف عن قيمته التداولية بوصفه رصيذا معرفيا إنسانيا، وإن تداوله والحرص على تناقله يدل على وعي الجماعة الإنسانية بعدة حقائق، من أهمها:

١- تكرارية التجربة: فالمثل هو قول موجز يختزل تجربة إنسانية؛ حيث يرد على ألسنة إحدى شخصيات هذا الموقف الإنساني، أو تفيض به السنة الجماعة الإنسانية، ثم تختزنه هذه

الجماعة في ذاكرتها لوعيتها بأنه نموذج متكرر، وبالفعل تظل قيمة المثل موضع اختبار وتأكيد بتكرار الحادثة نفسها (من حيث المغزى والمضمون)، وإن تغيرت الشخوص والأماكن والأزمنة. إن هذه التكرارية تحيلنا إلى حقيقة أخرى: هي: تراكمية المعرفة.

٢- تراكمية المعرفة:

استنادا إلى تلك الطبيعة التكرارية للمثل: فإن القيمة الوظيفية التواصلية الأولى له هي التوجيه إلى

ضرورة الاستعانة بخبرات الماضي، وتجارب السابقين، سعيا إلى الاستفادة منها، وتجاوز الإشكالات والعقبات التي مرت بها الإنسانية من قبل.

من هذه الزاوية يمكننا النظر إلى كتب الأمثال بوصفها ذاكرة إنسانية للعقل الإنساني عامة والعربي خاصة: إنها دفاتر يوميات تعيننا على قراءة الماضي، وفهم الحاضر، واستشراف المستقبل. وهذه المعاني سنحاول استقصاءها من خلال حكاية المثل: إنها في الحقيقة حكاية واحدة، أفرزت لنا أمثالا عدة، من هذه الأمثال:





وانصرف عنه. ولحقه عمرو، فقال كليب: يا عمرو أغثني بشربة، فنزل إليه، فأجهز عليه، فضرب به المثل فقيل:

المستجيرُ بعمرٍو عند كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنار

... وأقبل جساس يركض حتى هجم على قومه، فنظر إليه أبوه... فقال لمن حوله: لقد أتاكم جساس بدهية... ثم قال: ما وراءك يا جساس؟ فقال: والله لقد طعنت طعنة... وقال: وما هي؟ تكلتك أمك!. قال: قتلت كليباً. قال أبوه: بئس لعمر الله ما جنيت على قومك... ونشب الشر بين تغلب وبكر أربعين سنة كلها يكون لتغلب على بكر... وكان الحارث بن عباد البكري قد اعتزل القوم، فلما استعر القتل في بكر اجتمعوا إليه، وقالوا: قد فني قومك. فأرسل إلى مهلهل بجيراً وقال: قل له: أبو بجير يقرئك السلام ويقول لك: قد علمت أنني اعتزلت قومي لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم، وقد أدركت وترك، فأنشذك الله في قومك!. فأتى بجير مهلهلاً وهو في قومه فأبلغه الرسالة... فقتله، ثم قال: بؤ بشسع نعل كليب!. فلما بلغ الحارث فعله قال: نعم القتل.. إن أصلح بين هذين الغارين قتله وسكنت الحرب به. وكان الحارث من أحلم الناس في زمانه، فقيل له: إن مهلهلاً قال له حين قتله: بؤ بشسع نعل كليب! فلما سمع هذا خرج مع بني بكر مقاتلاً مهلهلاً وبني تغلب... وأنشأ يقول:

قريباً مَرَبُطُ النِّعَامَةِ مِنِّي

إِنْ بَيْعَ الْكَرِيمِ بِالشَّعْغِ غَالٍ

... ثم جمع قومه والتقى وبني تغلب على جبل... فهزمهم وقتلهم ولم يقوموا لبكر بعدها^(٢).

بين الفعل ورد الفعل.. بين الحب والكره.. الخير والشر.. والقوة والضعف؛ بين كل هذه المتضادات وغيرها الكثير تشكل صورة العالم، وتتراكم ملامحه.

وضرعها يشخب دماً وليناً، فلما نظر إليها صرخ: يا للذل! فخرجت جارية البسوس ونظرت إلى الناقة، فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت: وا ذلاه! ثم أنشأت تقول:

لَعَمْرُكَ لَوْ أَصْبَحْتُ فِي دَارٍ مَنَقَدٍ

لَمَا ضَيِّمَ سَعْدٌ وَهُوَ جَارُ لَأَبِيَاتِي

وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارٍ غَرِبَةٍ

مَتَى يَعْدُ فِيهَا الذُّبُّ يَعْدُ عَلَيَّ شَاتِي

فَيَا سَعْدُ لَا تَفَرُّزْ بِنَفْسِكَ وَارْتَحِلْ

فَإِنَّكَ فِي قَوْمٍ عَنِ الْجَارِ أَمْوَاتٍ



... فلما سمع جساس قولها سكنها وقال: أيتها المرأة لِيَقْتَلَنَّ غداً جملٌ هو أعظم عمراً من ناقة جارك!. ولم يزل جساس يتوقع غرة كليب حتى خرج كليب لا يخاف شيئاً، وكان إذا خرج تباعد عن الحي، فبلغ جساساً خروجه، فخرج على فرسه وأخذ رمحه، واتبعه عمرو بن الحارث فلم يدركه حتى طعن كليباً ودق صلبه، ثم وقف عليه. فقال كليب: يا جساس أغثني بشربة ماء!. فقال جساس: تركت الماء وراءك،

منشئها- إلا نتاجا لتطرف «كليب» وإفراطه في الاعتزاز بذاته «أعز من كليب وائل».

إننا نلاحظ أن ما يحكم مثل تلك المواقف التي تتسم بالاضطراب والتطرف وفقدان الحكمة هو وجود نمط من الشخصية غير سوية نفسيا وانفعاليا؛ تتسم بالانتقال المفاجئ الذي لا يخلو من دلالة التطرف والمبالغة في الأمر؛ فشخصية «جساس» تحولت من قبول الضيم والذلة والمهانة مدة من الزمان، إلى فعل الحماقة انتقاما يفقد أي قدر من المسؤولية وتقدير العواقب والنتائج.



سنتجاوز الحديث عن تهور الشخصية هنا، وانتقامها الأحق الذي جلب على قومها الحرب والهلاك؛ لننتعمق أكثر وراء السبب الرئيس لهذا الخلل، وتلك الرزية التي أصابت استقرار قبيلتين كبيرين من قبائل العرب أربعين عاما كاملة؛ وأقصد بهذا السبب ذلك التهاون والتفريط الذي وقع فيه جساس وقومه ابتداء حينما ارتضوا المذلة من «كليب»؛ إنه ضرب من التفريط لم يقع فيه جساس منفردا، بل

ولن يحتاج الأمر منا كثير تأمل حتى ندرك أن القاسم المشترك في كل هذه السلوكيات هو الإنسان الذي يحب ويكره، ويتواضع ويتكبر، الذي يجمع بين كل تلك المتناقضات في وقت واحد، والذي يرتبط وجوده بوجود هذا العالم، كما يرتبط وجود العالم بوجوده.

بإمكاننا أن نكتفي بهذا التعليق، وأن نترك للقارئ الفرصة لاستخلاص التجربة والاستمتاع بدراما الحرب العربية في هذا العصر الجاهلي؛ ويطلع على بعض أسرار الشخصية العربية، التي كانت عاملا مؤثرا في نشوب مثل تلك الحروب، أو تلك التي كانت تعمل على تهدئتها. ويمكننا كذلك أن نترك القارئ يقيم ويصنف نماذج الشخصيات التي أفرزتها هذه الحرب (شخصية المتكبر الطاغى «كليب»، وشخصية المنتقم «جساس»، ثم «المهلل»، وشخصية المساعد المساند «أهل جساس وقبيلته»، وشخصية الحكيم «الحارث بن عباد»...).

ولكن الصمت إزاء هذا النص الشارح لبنية المثل يستعصي علينا، وقد أخذنا على أنفسنا العهد باستنطاق النصوص استنطاقاً يخرج مكنوناتها، ويرسم لنا أبعدي واضحة للحياة كما عاشها السابقون، بما يكشف عن بعض جوانب الشخصية العربية التي لم ولن تفصل - في لحظة من لحظات التاريخ- عن امتداداتها التاريخية في السابق أو اللاحق؛ وإنما هي ميراث جامع تتناقله الأجيال من الشخصيات العربية عبر التاريخ.

هنا سنكتشف أن سرا من أسرار تطرف بعض الشخصيات في مواقف الحياة المختلفة يكمن في وجود تطرف مقابل؛ أو قل: إن كل تطرف يقابله على الجهة الأخرى تطرف مضاد مساو له - حسب قوانين الفيزياء- أو زائد عنه في التطرف والإفراط. إن ما قام به «جساس» من قتل كليب تلك القتلة التي جرّت الشقاء عليه وعلى قومه مدة من الزمان، وتجاوز بها «جساس» حدود القصاص المشروع (ناقة بناقة) لم تكن - في



وأشهر أيامها، وهنا سيقف على وجود شخصيات أخرى؛ وسيكتشف وجود خلفيات كثيرة وراء هذا الصراع الدموي؛ وسيقرأ في الأغاني:

«وقد كان كليب قبل ذلك قال لصاحبه أخت جساس: هل تعلمين على الأرض عربياً أمنع مني ذمة؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية فسكتت، ثم أعاد عليها الثالثة، فقالت: نعم؛ أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان. وزعم مقاتل: أن امرأته كانت أخت جساس، فبينما هي تغسل رأس كليب وتسرحه ذات يوم إذ قال: من أعز وأئـل؟ فصمتت، فأعاد عليها، فلما أكثر عليها قالت: أخوأي جساس وهمام! فتزع رأسه من يدها، وأخذ القوس فرمى فضيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بني مرة فقتله»^(٥).

وهنا سيكتشف ضحية أخرى من ضحايا الصراع؛ شخصية المرأة التي تقع بين مطرقة الحداد وسندانة: الزوجة «جلييلة» التي تقع ضحية لمبالغة الزوج في الاعتزاز بذاته «أعز من كليب»؛ حين يلح عليها في السؤال مختبراً ولاءها له ولأهلها؛ إنه نوع من الغباء الاجتماعي في معاملة الزوجات؛ أو قل: إن هذه هي نتيجة المبالغة في طلب الشيء.

إننا سنغض الطرف عن كل هذه النواتج الدلالية، وسنفكر معاً في تلك الصيغة بالغة الحضور في مجمع الأمثال؛ وفي هذا الصراع البسوسي على وجه الخصوص، إنها صيغة «أفعل التفضيل»، التي اشتملت عليها بنية المثل، وكررتها الشخصيات في طموحها وسعيها الزائدين صوب الكمال وبلوغ الغاية:

«أشأم من بسوس»: المثل رغم اعتماده صيغة المبالغة «أفعل» يحمل في مضامينه وثنائها حكايته رفضاً لهذه النظرة المغالية الطامحة دائماً إلى التفضيل.. إلى الأكثر، سواء كان هذا الأكثر سلبياً أم

شاركته فيه الجماعة بأسرها التي صنعت من يمكن أن نسميه بالطاغية^(٣).

وكما كان «جساس» نموذجاً للشخصية المتطرفة التي جلبت على قومها الرزايا؛ فقد كانت شخصية المهلهل هي الأخرى نموذجاً للشخصية المتطرفة بطبعها؛ وهذا ما توضحه كتب الأدب حينما تلقي إضاءتها على هذه الشخصية؛ ففي العقد الفريد: «فلما قُتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النهى. وتشمّر المهلهل أخو كليب، واسمه عدي بن ربيعة... واستعد لحرب بكر، وترك النساء والفزل، وحرّم القمار والشراب، وجمع إليه قومه...»^(٤).



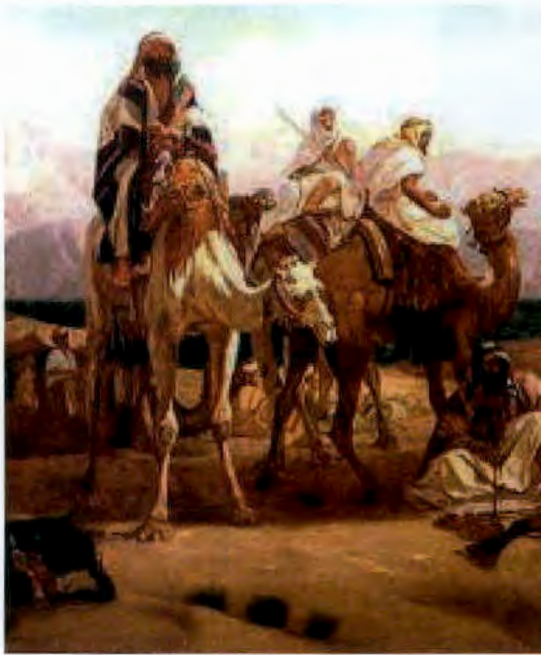
إن هذه الشخصية العربية (النموذج) تنتقل من قمة التطرف السلبي (عالم اللهو والمجون حتى سمي الزير سالم)؛ إلى قمة التطرف في الصرامة والالتزام بقضاء الوتر (الثأر) من قَتلة أخيه؛ فيعادي القوم مجتمعين، وتستمر الحرب بينهما مدة أربعين عاماً كاملة.

أفعل التفضيل.. شَرُّكُ الغلو الإنساني؛

إن هذا المشهد الدرامي المصاحب للمثل يفتح عالم الفن على وجهات النظر المختلفة؛ فضلاً عن كونه يفتح شهية القارئ للمطالعة؛ فيذهب في نهم لتتبع أخبار تلك الحرب الضروس، وأبطالها وفرسانها

من أي جرم- رمزا لكل من مارس فعلا متطرف المنزع، بل إن الحكاية مليئة بالكثير من النماذج التي تعبر عن هذا المنزع المتهور المُفْرِط في تكبره: «كليب»، أو حمقه وسوء تصرفه: «جساس»، أو شدة بطشه وانتقامه: «المهلل».

تحيلنا حكاية «البسوس» السابقة، وما اقتصناه من ثناياها من مغزى معرفي عميق إلى ما هو منها بسبيل؛ إنها تحيلنا إلى نسخة معدلة لحكاية هذا المثل، وإن اتفق المثلان لفظا:



«أشأم من البسوس... الشؤم ضد اليُمن، شؤم الرجل بالضم على قومه، وشؤم عليهم بالبناء للمجهول: صار شؤما عليهم... والبسوس أيضاً امرأة شؤم، وهي المضروب بها المثل. وكانت هذه المرأة أعطيت زوجها ثلاث دعوات مستجابات، فقالت له: اجعل لي واحدة منها! قال: نعم؛ فما تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل! ففعل

إيجابيا، فنحن نرى أحيانا بمنظار السواد والتشاؤم، فنغالي في وصف الأوضاع السياسية والاقتصادية أو الأخلاقية والاجتماعية بأنها صارت على أسوأ ما يكون، في حين يغالي الآخرون على الطرف الآخر بوصف الأمور بأنها وردية، وكأنه ليس في الإمكان «أبدع» -على وزن أفعل- مما كان.

إننا إذاً في حاجة إلى الاحتياط والتعامل الحذر مع هذه الصيغة، وليتنا نستلهم الحس النحوي العربي الذي يجعل لهذه الصيغة مكانة خاصة، حين يجعلها «ممنوعة من الصرف»، ومن ثم يكون لها طائفة من الأحكام الاحترازية تحتاج من مستخدم اللغة إلى الحذر والاحتياط، كأن لا ينونها حال الأفراد والتكثير، وأن يجرها بالفتح.

إن الحكم بـ«أشأم من بسوس» هو في طياته يحمل دلالة التحامل وعدم الدقة في توجيه الأحكام؛ فينسب حرباً طويلة دامت أربعين سنة إلى شخصية المرأة «البسوس»، لا شيء سوى أنها صاحبة الناقة «سراب» التي رعت -في فعل حيواني غير مسؤول- في حمى «كليب»، فأنشبت الحرب على خلفيات أخرى كثيرة من تسلط «كليب» ومفالاته في الكبر وطلب العزة، وقهر الآخرين، وممارسة السلطة الجائرة المتكبرة عليهم، ومن غيرة جساس وحسده على كليب لما كان قد تراكم في وجدانه من إحساس مريب بالضميم والجور والقهر.

إن الوعي العربي حين يضرب لي المثل: «أعز من كليب»، و«أشأم من بسوس»، ويقدم لي حكايته سرداً أدبياً شيقاً؛ إنما يقدم للقارئ درساً في فن الحياة؛ ويمد له يد النصح والإرشاد مجيباً عن سؤال: كيف أحيأ؟ كيف أعيش؟ كيف أتعامل مع من حولي؟!

فهو يتخذ من شخصية «كليب»، ومن «البسوس» -رغم براءة شخصية البسوس في شخصها وبذاتها



الوعظ والأمر والزجر. ففي مثل البسوس (امرأة بني إسرائيل) السابق ذكره تتشابك المصالح، وتتعقد البنية الدرامية رغم ضيق المدى الكمي للمثل؛ إننا نلغي أنفسنا في صراع خفي بين المصلحة الفردية ومصلحة الجماعة.

إن الجماعة هنا تتمثل في النواة الجماعية الأولى للمجتمع؛ إنها مجتمع الأسرة (الأب-الأم-الأبناء). وعبر الفكرة (الفانتازية) «الدعوات الثلاث المستجابات» يتعكر صفاء الجماعة؛ حينما تتعرض



لإغراء المادة «الدعوة المستجابة» التي تصير بمثابة اختبار يصفى سلوك الذات الإنسانية، ويكشف عن مدى حكمته ووعيه الوسطي الخيري العادل، أو طيشها ونزقها الذي ينطلق دون قيد أو حكمة نهما وراء شهواته ومصالحه الفردية غير آبه لمصلحة الكل «الأسرة».

يبدأ الاختبار مع منح «الدعوات الثلاث» للقيم على الجماعة، - ولاحظ معي المغزى الخفي الذي يغازل معنى القوامة وحقوق الرعاية التي تُصاعف من مسؤولية كل راع تجاه رعيته- فيشرع هذا القيم

فرغبت عنه وهمت بسئاً! فدعا الله أن يجعلها كلبة نباحة. فجاءه بنوها وقالوا: ما لنا على هذا من قرار يعيرنا بها الناس، فادع الله أن يعيدها إلى حالها! فدعا لها، فذهبت الدعوات كلها بشؤمها»^(٦).

إننا مع هذه الحكاية التفسيرية للمثل نقف ابتداء على حقيقة متعلقة بطبيعة المثل وحكايته؛ فهي ليست بالضرورة قائمة على تمثيل حي لوقائع حقيقية؛ بدليل تناوب قصتين (أو موردين اثنين) على متن واحد للمثل^(٧)؛ إحداهما تنتمي تاريخاً إلى العصر

الجاهلي؛ وتحكي لنا واحدة من أشهر معاركه وأحداثه، والأخرى تضرب بجذورها -أعمق مما سبق- في عهود بني إسرائيل البائدة؛ وهو أمر يمكن تفسيره بـ «حساسية الموقع التاريخي لهذه النصوص بين (الجاهلية) و(الإسلام) بمختلف معطياتها، وبما تحمله من تعارضات دينية، أو أخلاقية، أو اجتماعية، مما يفسح المجال للنظر في (صدق) محمولاتها، وما تتطوي عليه من (حقيقة) في التعبير عن حضور انمحت أغلب سماته، ووجه معظم

ما تبقى من آثاره ليتناسب بشكل ما مع معطيات العصر الجديد، وقد تعرضت في كل ذلك لإكراهات، وانزياحات، وإقصاءات كثيرة أسهمت بالانتقال بها من صورتها الشفاهية الأولى، إلى صورة ثانية تستجيب فيها لمقتضيات التدوين»^(٨).

إن الأمثال العربية إذأ تهمل جانب الحقيقة التاريخية؛ ولا شك أن هذا لحساب قيمة أخرى؛ لعلها تكمن في المغزى؛ في الرسالة الإنسانية أو الكلمة التي تود إيصالها للقارئ؛ هذه الكلمة التي تمثل محفز التدوين الأول عند جامع الأمثال ومدونها؛ إنها

إنه الانتقام؛ غير أنه هاهنا جاء مفرداً كَسِمَة كل الأفعال في بيئة هذه الحكاية: «فدعا الله أن يجعلها كلبة نباحاً».

وهنا يأتي دور الأبناء الذين اكتفوا - على ما يبدو - بدور المتفرج منذ بدء الحكاية؛ ربما غابوا بمحض إرادتهم، ورأوا في أمر هذه الدعوات الثلاث وما دار حولها من جدل بين الزوج والزوجة أمراً خارجاً عن مجال اهتمامهم؛ أو ربما غيبتهم السلطة المحكمة في عالم الحكاية هنا «شخصية الأب»؛ في صورة تحتل تأويلات وإسقاطات جَمَّة قد تمتد إلى ما هو سياسي على صعيد الدولة، وما يكتنف أفراد أسرتها من علاقات تجاهل وانقطاع للصلات بين الراعي والرعية، بين الحاكم والمحكوم.

على كل الأحوال يتدخل الأبناء - الطرف الذي كان غائباً عن مسرح الأحداث - حينما يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية؛ حينما يعيرهم الناس بحال أمهم التي صارت كلبة تعوي؛ وكأن لسان حالهم يقول للأب وللأم معا: لقد تركناكم لشأنكم، ولم ننازعكم دعواتكم الثلاث؛ حتى أهدرتما منها اثنتين جلبتما بهما العار علينا: «فجاء بنوها وقالوا: ما لنا على هذا من قرار يعيرنا بها الناس، فادع الله أن يعيدها إلى حالها! فدعا لها فذهبت الدعوات كلها بشؤمها».

إننا هنا أمام شرك واضح لوساطة شكلية قام بها الأبناء فضاً للصراع بين الطرفين الأب والأم؛ تغدو معه هذه الدعوات رمزا للطاقات المهذرة نتيجة سوء إدارتنا للمواقف واستثمارنا لطاقتنا؛ وهو رمز صالح للانسلاخ من هذه الدلالة الضيقة المستمدة من المثل لينسحب - قياساً - على ما يشبهه من مواقف كبيرة وصغيرة تعتري أنشطة حياتنا اليومية؛ ولن يكون بعيداً عن طائفة هذا الرمز عظماء أمور الأمة العربية في لحظتها الراهنة، حيث نعاني داء عضالا يقف سرا

بدوره بتوزيع الدعوات؛ ويمنح الدعوة الأولى للزوجة (الأم) التي تكشف من مبتدأ ملفوظها عن نزعتها الفردية وأنانيتها المفرطة التي تبدت في مسارعتها بالطلب «فقالت له: اجعل لي واحدة منها!»؛ مُقَدِّمة متعلق الفعل «لي» المشتغل على ضمير المتكلم على مفعوله «واحدة» تأكيداً على فساد السريرة وفردية المنزع.

وحينما يوافقها زوجها مستفسراً عن رغبتها؛ تهوي المرأة في اختيارها تحت وطأة رغباتها الشخصية؛ «قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل».. إنها لا تتشد الجمال فقط؛ وإنما تبالغ في مطلبها عبر أفعل التفضيل (أجمل امرأة)؛ تلك الصيغة التي طالما وقفت - كما أكدنا من قبل - مؤشراً على زيغ الرؤية وانعدام الوسطية، وبالتالي تعد مؤشراً مبكراً بتعقد الحكاية؛ ومن ثم سوء العاقبة جزاءً لما افترفته الشخصية من إفراط ومغالاة في الطلب.

وليكتمل مسلسل انعدام الحكمة يأتي سلوك الرجل - المفترض فيه القوامه ورجحان العقل - متسرعاً دون تحقيق أو تمحيص في قيمة هذه الدعوة وعاقبتها، وهو التسرع الذي أفاده العطف بالفاء بدلالتها التعقيبية «ففعّل»، إنه تسرعٌ ربما نرجعه هو الآخر إلى الانسياق وراء النزوع المادي المتمثل هنا في استرضاء الأنثى؛ التي تمثل للذات الذكورية مصدراً للإشباع المادي.

وهنا يأتي الجزء من المرأة مزيداً من الغي والتمرد والزيغ عن الحكمة؛ فتضرب بمصلحة الجماعة (الأسرة) عرض الحائط منطلقة وراء شهواتها الجسدية: «فرغبت عنه وهمت بسبي»؛ وهو السلوك الذي يمثل اعتداء على الذات؛ مما يستدعي إلى فضاء البنية الدرامية فعلاً عقابياً مضاداً؛



أشبهه بالنقد الذاتي وتحذير الذات من مغبة الإفراط والمغالاة في طلب الشيء خاصة، والحمق وسوء تقدير الأمور وموازنة المصالح والعواقب عامة.

وهكذا يمكننا القول: إن كل صفحة من صفحات كتب الأمثال، بما فيها من حكمة موجزة، وحكايات شارحة مفصلة، هي صفحة من صفحات الحياة تنطق بما يعج به العالم من صراعات، وما يعتمل بين أبنائه من دفع وتدافع. ■

الذي ضرب فيه الآن بالموارد أي المعل الذي ورد فيه» اليوسي، زهر الأكم. (٨) د. لؤي حمزة عباس، سُرَد الأمثال - دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب الفضل بن محمد الضبي (أمثال العرب) من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - ٢٠٠٣م. <http://www.awu-dam.org>، <http://www.microsoft.com/isapi/redir.dll?prd=ie&pve r=6&ar=msnhome> نقلًا عن: د. عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية: ١٠٠. (٩) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: د. أحمد مطلوب - د. خديجة الحديث، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، مطبعة العاني، بغداد، ص ١٤٥. ثم يكمل ابن وهب كلامه قائلاً: «وإنما فلت العلماء ذلك، لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنًا فهو محتاج إلى ما يدل على صحته، والمثل مقرون بالحجة» ص ١٤٦.

بعض التقاليد؛ إنها ليست مجرد حكايات للتسلية والإمتاع فحسب؛ فلطالما كانت الأمثال الأداة الناجعة التي وظفها الحكماء والأدباء في بناء وعي الجماعة؛ فهم «لم يزالوا يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال، بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبًا، وأقرب مذهبًا»^(٩).

لقد غدت بنية المثل وحكايته بمثابة صيغة تحذيرية أطلقتها الوعي الجماعي العربي؛ في سلوك

وراء جل ما يعترينا من تخلف بين أمم الأرض؛ إنه سوء استثمار طاقاتنا وثرواتنا التي باتت في ظل هيمنة المصلحة الفردية على توجيهها لطاقاتنا وثرواتنا متناسين بُعد المصلحة الجمعية للأمة: مما يعد إغفالاً لمعنى الأمة وخصيصة الوحدة التي وسم الله عز وجل بها الإسلام: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) (الأنبياء).

إن البنية الدلالية للمثل تأتي رافعة شعار التمرد على

الهوامش:

- (١) الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم) ت ٥١٨هـ، مجمع الأمثال، في جزأين، طبعة ١٩٦١م، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ١، ص ١٢، ١٣.
- (٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٩، ٩٠.
- (٣) عالج فكرة صناعة الطاغية هذه عبد الله الغدامي في كتابه «النقد الثقافي: فأرجعها إلى تبدلات مفهومية ترجع إلى نسق ثقافي تم صناعته بالتوازي مع ما يسمى بفكرة «الفعل الشعري»؛ حيث يرى أن صناعة الفعل الشعري المتفرد القائم على مغازلة وعي السلطة والتأثير فيها عبر قانون (الرغبة والرهبة) هو «ما أفضى أخيراً إلى صناعة الطاغية، الذي هو إفراز ثقافي للمفعول السلبي لخطاب التثقيل». انظر: عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، إصدار الهيئة العامة لقصور

الثقافة، سلسلة كتابات نقدية عدد ١٨٩، الفصل الرابع بعنوان «تزييف الخطاب/ صناعة الطاغية»، ص ١٤٧ وما بعدها.

(٤) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ضمن الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)، المجمع الثقافي أبو ظبي: ١٩٩٧ - ٢٠٠٣م، الموقع الإلكتروني: <http://www.cultural.org.ae>، <http://www.cultural.org.ae-Website-> (٥) - الأغاني، الأصفهاني، ضمن الموسوعة الشعرية.

(٦) نور الدين اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ضمن الموسوعة الشعرية. ونشير هنا إلى أن المثل موجود بنصه في أكثر من مصدر أدبي؛ ومنها: المستقصى للزمخشري، الموسوعة الشعرية.

(٧) مورد المثل هو السياق الأول الذي وقع فيه، ومضربه هو الموقف الأنبي للتمثيل؛ ومن تعريفات المثل: «تشبيه المضرب أي المحل



عيسى جرابا - السعودية

غربة

لَعَلِّي أَلْقِي بَعْضَ مَا ضَاعَ مِنْ عُمْرِي
بِهَا مِنْ مِدَادِ الْقَلْبِ سَطَرٌ عَلَى سَطَرٍ
لَظَى كُلَّمَا سِرُّ تَكْشَفُ يَسْتَشِيرِي
وَقُلْتُ لَهَا سِيرِي إِنِّي حَيْثُ لَا أَدْرِي
عُيُونٌ تَرَى حَتَّى الْمُخْبَأِ فِي صَدْرِي
ظِلَامٌ كَأَنِّي مِنْهُ فِي ظِلْمَةِ الْقَبْرِ
بَقَايَا فُؤَادٍ كَمْ تَوَقَّدَ كَالْجَمْرِ
لَأَمَارَةٍ بِالسُّوءِ... جَلَابَةِ الْقَهْرِ
وَقُودُ الْأَسَى شَبَابَةٌ فِي فَمِ الصَّبْرِ
سُؤَالًا عَلَى قَلْبِي أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
غَرِيبٌ سِهَامُ الْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ تَبْرِي
مِنَ النُّورِ تَلْقَى مُهْجَتِي فِيهِ مَا يُغْيِرِي
سَوَى طَعْنَةٍ نَجْلَاءَ مِنْ خِنْجَرِ الْقَدْرِ
وَأَشْبَاحُ لَيْلٍ فَوْقَ أَنْفَاضِهَا تَسْرِي
بِأَعْمَاقِ أَعْمَاقِي تَبَارِيحُهَا تَقْرِي
فَمَا الْيُسْرُ إِلَّا قَبْضَةٌ مِنْ يَدِ الْعُسْرِ

سَارَحَلُ فِي صَمْتٍ إِلَى حَيْثُ لَا أَدْرِي
طَوَيْتُ وَرَائِي صَفْحَةً إِثْرَ صَفْحَةٍ
وَأَمَعَنْتُ مِنْ حَوْلِي وَبَيْنَ جَوَانِحِي
فَأَسْلَمْتُ طَوْعًا لِلْمَقَادِيرِ مِقْوَدِي
أَجُسُّ طَرِيقِي خَائِفًا وَالْدُّجَى لَهُ
تَرَامَى فَمَا حَدَقْتُ إِلَّا وَرَاعَنِي
فَأَشْعِلُ آهَاتِي وَأَدْرِكُ أَنَّهَا
وَأَهْرُبُ مِنْ نَفْسِي إِلَيْهَا وَإِنَّهَا
وَأَسْتَرْفِدُ الذِّكْرَى فَأَغْلِي كَأَنَّهَا
فَيَنْهَلُ دَمْعِي رَاسِمًا فَوْقَ وَجْنَتِي
أَنَا مَنْ أَنَا؟ أَنْكَرْتُ وَجْهِي كَأَنَّنِي
سَارَحَلُ فِي صَمْتٍ أَفْتَشُ عَنْ مَدَى
فَمَا عَادَ فِي دُنْيَايَ مِمَّا أَرُومُهُ
وَعُمْرِي حُقُولٌ خَاوِيَاتٌ عُرُوشُهَا
سَارَحَلُ مَا دَامَتْ هُنَالِكَ غُرْبَةٌ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْعَيْشِ أُنْدَاءُ بِهِجَةٍ